

المال، ووظيفته الاجتماعية!

المال قوة مركزة، ليس لها فى نظر الواقع ولا فى نظر الناس حدود.. هذه القوة المركزة لا حدود لتركيزها، ولا حدود بالتالى لمفرداتها التى يمكن أن تترجم إلى عقارات ومنقولات لا حصر لها وإلى منافع وخدمات لا حد لعددها ولا لتنوعها.. المبلغ المالى المترجم فى أوراق نقد، أو أسهم أو سندات - وما شابه - ويمكن أن تضمه خزينة صغيرة فى حيز محدود - هو عبارة فى الواقع عن قوة مركزة ضخمة وهائلة يسهل على صاحبه - فرداً أو جماعة - أن يستعمله فى تحقيق آلاف ومئات الآلاف من الرغبات والأغراض والمنافع والمقتنيات، ويمكنه أن يحفظه مكنوزاً حيث هو، ويمكنه أن يسخره فيما يشاء حيث يشاء وبأى صورة يشاء.. هذا التسخير قد يرد موارد الشر مثلما قد يرد موارد الخير، تحقق حركته صلاحاً وإصلاحاً مثلما يمكن أن تحقق دماراً وإهلاكاً، وتجنّب إدارته ثماراً مثلما يمكن أن تحصد أرواحاً!.. لذلك كان المال فى نظر الواقع ونظر مالكه ونظر الناس قوة هائلة بلا حدود، لا يتحدد معنى وقيمة وجدوى امتلاكها إلاّ تبعاً لغايات أو أغراض أو مآرب سيسته وإدارته وتداوله وتحريكه، أو تبعاً لاحتجازه واكتنازه وتعطيله عن عمارة الحياة!!

للمال وظيفة واجبه يتوه عنها إن لم يمسك بمعناها ومغزاها، ويرتد وبالأحرى على صاحبه إذا لم يفهمها ويرعاها.. المال المكتنز هو مال يتسرب ولا يكف عن التسرب دون أن يعى الكائز ما برد عليه من تسرب لا يحسه، لأنه مشغول بمنعه وحجبه واحتجازه وتراكمه المرضى الذى يتراعى خادعاً لعين المتعجب بتراكماته

المركزة.. هذا المال الذى يساوى مقدار ما يمكن تفكيكه إليه فى صورة عقارات أو منقولات أو سلع أو أسهم أو سندات أو منافع أو خدمات، تقل قيمته المختزنة مع توالى الزمن بالارتفاع التضخمى فى الأسعار، وتقل تبعاً لذلك قوته الشرائية التى تتضاءل برغم بقاء كমে العددى كما هو.. لا يدرك الكانز المحتجز أنه أول الخاسرين بكنزه واحتجازه لماله وتعطيله عن مباشرة الوظيفة الاجتماعية له.. هذه الوظيفة لا تسهم فقط فى عمارة الحياة، ولكنها تبرى المال ذاته وتزيده ثراء وقوة بما يحتازه من مفردات مادية أو معنوية أو خدمية تغلو قيمتها مع الزمن بعكس النقد الذى تتخفف قوته الشرائية بمرور الأيام!

ينحرف المال عن وظيفته الاجتماعية، والإنسانية أيضاً، إذا تحول إلى غاية فى ذاته، وحل فى نظر الناس حلولا كاملا محل العمل، وصار وسيلة لقوة التحكم فى الناس وفى الحياة، وحجب بالكنز عن التداول وإثراء الحياة الاقتصادية.. التمحور فى المال، والانصراف إليه لذاته، يعطل سنن الحياة، وينحرف انحرافاً بعيداً بقيمتها وبوظيفة المال فيها بالقياس إلى وظائف أخرى بالغة الأهمية واللزوم للحياة. الانحصار فى المال يلفت الناس - بتأثيره - عن قيمة العمل وقيمة الخامة البشرية وقيمة دورها فى صناعة الحياة..

هذا المعنى يتجلى أكثر وضوحاً فى الآية القرآنية التى تقول فى معرض حثها على إنفاق المال فى وجوهه: "كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ" (الحشر ٧).. المعنى القرآنى يشير إلى قيمة "التداول" فى حركة الحياة ذاتها، هذه الحركة قوامها الفعل والعمل والنشاط، ثم هى فى انسيابها جيئةً وذهاباً تعمر حيوات أفراد وحيوات مشروعات وحيوات أعمال وحيوات صناعات وحيوات زراعية وتجارية وخدمية، وهذا التداول يصاحبه بالضرورة نماء للمال ذاته ونماء أيضاً للأنشطة المتنوعة المتعددة التى يحركها تداوله، فينعكس ذلك ثراء

وحياة على المجتمع وبالضرورة على أفرادها، ويعطى للعمل قيمة تتيح لفقراء المال فرصة للتنفس ومقاومة الفقر والإملاق من ناحية، وفرصة للعطاء والإسهام فى صناعة الحياة من ناحية أخرى!

إدارة المال توازن تلقائياً بين فئات وأفراد المجتمع، وتقى من "غول" الفقر وعوادمه وتعطى للكادحين إحساساً بالقيمة المستمدة من دورهم فى حركة الحياة، وبديلاً عن الإحساس بالبوأس والتعاسة ومذلة وهوان تلقى الصدقات والهبات كثرته أم قلت!!!

وظيفة المال تتعاضد فى الوقت الحالى لتمتد من النطاق المحلى إلى النطاق العالمى مضيئة إلى مهامها مهام التصدى، أشكال البطالة والفقر والتفاوت الاجتماعى وتباين أوضاعه، وتقصى العدالة الاجتماعية ورعاية المستقبل الاقتصادى الدولى وأوضاع الاستثمار العالمى، وإزالة تحديات النمو العالمى، وخلق فرص جديدة للاستثمار وانعكاساته على الخصوصيات المحلية.

اكتناز المال، وتعطيله عن وظيفته الاجتماعية وعن هذه المهام المضافة التى تفرضها الأوضاع العالمية، ينحرف به بالضرورة إلى التمتع والطرارة ويهبط بالخامة البشرية إلى مناعم وترفيات تفتح بدورها أبواباً للمفاسد وخفوت الطاقة الروحية واعتلال الضمائر. هذه السوالب تصيب المجتمع بعامه، وتصيب صاحب المال ذاته حين يأخذ الترف والتمتع بعيداً عن إنماء عقله وفكره، ويصرفه عن إدراك معنى الحياة ذاتها، ويخبو بطاقته الروحية ربيعاً بنائه النفس ويحوطه إلى مجرد خازن أو وعاء تلقى ثم إخراج معطيات هذه التمتع الذى لا يعرف إلا المعطيات المادية التى تتخم البدن وتطفى الروح!

القيام بوظيفة المال العامة حصافة واتساع رؤية، والقيام بوظيفته الاجتماعية، ليس باباً من أبواب الصدقة والإحسان. ولكنه يشكل لغة ومعنى الحياة التى لا تتشط إلا بتحريك قواها وعناصرها

وأنشطتها.. الالتفات إلى وظائف المال هو المفتاح السحري لتحريك هذا هو "المال" باعتباره قوة مركزة تكفل حركته وتداوله تحريك كل هذه السواكن وتحويلها من قوة وقدرات كامنة، إلى أنشطة فاعلة.. هذا النشاط الفاعل يتغشى المجتمع كله بالنماء والثراء، ويجعل لتنامى المال معنى يثرى صاحبه من ناحية، ويثرى إحساسه - وهو الأهم - بأنه عنصر فاعل معطاء فى صناعة العمار والحياة!